تفسير إبن كثير

وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

قال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن أخي الزهري محمد بن عبد االله ، عن عمه محمد بن مسلم الزهري ، أخبرني عبد الرحمن بن عبد االله بن كعب بن مالك ، أن عبد االله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عمي - قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول االله صلى االله عليه وسلم في غزوة تبوك ، فقال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول االله صلى االله عليه وسلم في غزاة غيرها قط إلا في غزوة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ، ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول االله صلى االله عليه وسلم يريد عير قريش ، حتى جمع االله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول االله صلى االله عليه وسلم ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر

في الناس منها وأشهر ، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول االله صلى االله عليه وسلم في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، واالله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ، وكان رسول االله صلى االله عليه وسلم قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول االله صلى االله عليه وسلم في حر شديد ، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا ، واستقبل عدوا كثيرا فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول االله صلى االله عليه وسلم كثير ، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فقال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من االله ، عز وجل ، وغزا رسول االله صلى االله عليه وسلم تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل ، وأنا إليها أصعر . فتجهز إليها رسول االله صلى االله عليه وسلم والمؤمنون معه ، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض من جهازي شيئا ، فأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمر بالناس الجد ، فأصبح رسول االله صلى االله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ، ولم أقض من

جهازي شيئا ، وقلت : الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئا من جهازي . ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل [ذلك] يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم - وليت أني فعلت - ثم لم يقدر ذلك لي ، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد [خروج] رسول االله صلى االله عليه وسلم [فطفت فيهم] يحزنني ألا أرى إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق ، أو رجلا ممن عذره االله ، عز وجل ، ولم يذكرني رسول االله صلى االله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : " ما فعل كعب بن مالك ؟ " قال رجل من بني سلمة : حبسه يا رسول االله برداه ، والنظر في عطفيه فقال له معاذ بن جبل : بئسما قلت ! واالله يا رسول االله ما علمنا عليه إلا خيرا ! فسكت رسول االله صلى االله عليه وسلم ، قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول االله صلى االله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدا ؟ أستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي . فلما قيل : إن رسول االله صلى االله عليه وسلم قد أظل قادما ، زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبدا . فأجمعت

صدقه ، وصبح رسول االله صلى االله عليه وسلم ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس . فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلا - فقبل منهم رسول االله صلى االله عليه وسلم علانيتهم ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى االله تعالى ، حتى جئت ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال لي : " تعال " ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : " ما خلفك ، ألم تك قد اشتريت ظهرك " ؟ قال : فقلت : يا رسول االله ، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلا ولكنه واالله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ، ليوشكن االله يسخطك علي ، ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه ، إني لأرجو أقرب عقبى ذلك [عفوا] من االله ، عز وجل واالله ما كان لي عذر ، واالله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال : فقال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي االله فيك " . فقمت وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني ، فقالوا لي : واالله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول االله

صلى االله عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون فقد كان كافيك [من ذنبك] استغفار رسول االله صلى االله عليه وسلم لك . قال : فواالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي : قال : ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم ، [لقيه معك] رجلان ، قالا ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . قلت : فمن هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامري ، وهلال بن أمية الواقفي . فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا لي فيهما أسوة . قال : فمضيت حين ذكروهما لي - قال : ونهى رسول االله صلى االله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة . فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد ، وآتي رسول االله صلى االله عليه وسلم وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم ، وأقول في نفسي : حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي قريبا منه ، وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي ، فإذا التفت نحوه أعرض ، حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى

تسورت حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي ، وأحب الناس إلي - فسلمت عليه ، فواالله ما رد علي السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة ، أنشدك االله : هل تعلم أني أحب االله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدت فنشدته [فسكت ، فعدت فنشدته] فقال : االله ورسوله أعلم . قال : ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار . فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ، ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال : فطفق الناس يشيرون له إلي ، حتى جاء فدفع إلي كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتبا فإذا فيه : أما بعد ، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك االله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . قال : فقلت حين قرأتها : وهذا أيضا من البلاء . قال : فتيممت به التنور فسجرته حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا برسول رسول االله صلى االله عليه وسلم يأتيني ، فقال : إن رسول االله صلى االله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك . قال : فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها ولا تقربها . قال : وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك قال : فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك ، فكوني عندهم حتى يقضي االله في هذا الأمر . قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول االله صلى االله عليه وسلم فقالت

له : يا رسول االله ، إن هلالا شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : " لا ولكن لا يقربنك " قالت : وإنه واالله ما به حركة إلى شيء ، واالله ما يزال يبكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا . قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول االله صلى االله عليه وسلم في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه . قال : فقلت : واالله لا أستأذن فيها رسول االله صلى االله عليه وسلم ، وما أدري ما يقول رسول االله صلى االله عليه وسلم إذا استأذنته وأنا رجل شاب ؟ قال : فلبثنا [بعد ذلك] عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال : ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر االله تعالى منا : قد ضاقت علي نفسي ، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشر . قال : فخررت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء فرج ، فآذن رسول االله صلى االله عليه وسلم بتوبة االله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إلي رجل فرسا ، وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاءني الذي سمعت

صوته يبشرني ، فنزعت ثوبي ، فكسوتهما إياه ببشارته ، واالله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت أؤم رسول االله صلى االله عليه وسلم ، يلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بالتوبة ، يقولون : ليهنك توبة االله عليك . حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول االله صلى االله عليه وسلم جالس في المسجد حوله الناس ، فقام إلي طلحة بن عبيد االله يهرول ، حتى صافحني وهنأني ، واالله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة . قال كعب : فلما سلمت على رسول االله صلى االله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور : " أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك " . قال : قلت : أمن عندك يا رسول االله أم من عند االله ؟ قال : " لا بل من عند االله " . قال : وكان رسول االله صلى االله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، حتى يعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول االله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى االله وإلى رسوله . قال : " أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك " . قال : فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر . وقلت : يا رسول االله ، إنما نجاني االله بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت . قال : فواالله ما أعلم أحدا من المسلمين

أبلاه االله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول االله صلى االله عليه وسلم أحسن مما أبلاني االله تعالى ، واالله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول االله صلى االله عليه وسلم إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني االله فيما بقي . قال : وأنزل االله تعالى : (لقد تاب االله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من االله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن االله هو التواب الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا االله وكونوا مع الصادقين) قال كعب : فواالله ما أنعم االله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول االله صلى االله عليه وسلم يومئذ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه [حين كذبوه] ؛ فإن االله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، قال االله تعالى : (سيحلفون باالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن االله لا يرضى عن القوم الفاسقين) [التوبة : 95 ،

96] . قال : وكنا خلفنا - أيها الثلاثة - عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول االله صلى االله عليه وسلم حين حلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول االله أمرنا ، حتى قضى االله فيه ، فبذلك قال االله تعالى : (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخلفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه ، فقبل منه .هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته ، رواه صاحبا الصحيح : البخاري ومسلم من حديث الزهري ، بنحوه .فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها . وكذا روي عن غير واحد من السلف في تفسيرها ، كما رواه الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر بن عبد االله في قوله تعالى : (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) قال : هم كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة وكلهم من الأنصار .وكذا قال مجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي وغير واحد - وكلهم قال : مرارة بن ربيعة .[وكذا في مسلم : مرارة بن ربيعة في بعض نسخه ، وفي بعضها : مرارة بن الربيع] .وفي رواية عن سعيد بن جبير : ربيع بن مرارة .وقال الحسن البصري : ربيع بن مرارة أو مرارة بن ربيع .وفي رواية عن الضحاك : مرارة بن الربيع ، كما وقع في الصحيحين ، وهو الصواب

.وقوله : " فسموا رجلين شهدا بدرا " ، قيل : إنه خطأ من الزهري ، فإنه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدرا ، واالله أعلم .ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب ، من هجر المسلمين إياهم نحوا من خمسين ليلة بأيامها ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، أي : مع سعتها ، فسددت عليهم المسالك والمذاهب ، فلا يهتدون ما يصنعون ، فصبروا لأمر االله ، واستكانوا لأمر االله ، وثبتوا حتى فرج االله عنهم بسبب صدقهم رسول االله صلى االله عليه وسلم في تخلفهم ، وأنه كان عن غير عذر ، فعوقبوا على ذلك هذه المدة ، ثم تاب االله عليهم ، فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم